حِيَلُ الضمير

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الضمير عند بعض الناس ترس الخائف الذى يحتمى بمجنه ، وهو عند غيرهم سلاح الصائل ، وعند آخرين آلة نصب واحتيال ، وعند غيرهم بمنزلة الثياب الجدد التى يلبسونها أيام الأعياد والمواسم والصلوات ويخزنونها فى الأيام الأخرى وهو تارة كالمصباح المنير

وترى كثيراً من الناس يكثرون من ذكر ضمائرهم أو يفعلون ما هو أدهى من ذلك فيكثرون من ذكر العدل والحق ، وهى لقيمات يطريها كل منهم ويود أن يضعها فى فم غيره ، وهى أحمال وأثقال يمدحون الاضطلاع بها وكل يود أن يضعها على كتف غيره أو على عنقه ، وما ذلك إلا لأن الناس ينشدون السعادة ، والسعادة لا تكون إلا إذا اصطلح شر الحياة وضمير الانسان ، وإذا اصطلح المثل الأعلى ومثل الحياة الدنيا ، وقد يكون فكر المرء وقوله خيراً من خلقه وفعله ، لأن أعمال المرء رهينة باحساسه لا بفكره وقوله ، وقد يكون فكره نبيلاً وقوله جليلاً ولكن إحساسه يدفعه إلى سبيل غير سبيل هذا النبل والجلال فى القول والفكر

ولما كانت الرذيلة أحوج الأشياء إلى مظاهر الفضيلة عم الكذب والرياء بين الناس انتفاعاً بمظاهر الفضيلة وحقيقة الرذيلة من كسب أو متعة . وهذه المظاهر تجوز على الناس ويحسبونها فضيلة أو هم يدعون الانخداع لها رغبة فى التقرب إلى صاحبها والانتفاع برضائه عن انخداعهم بظواهر نفسه ، وهذا منشأ انقلاب أوضاع الحياة ، وهم يطلبون منه أن يدعى الانخداع بظواهر نفوسهم كما ادعوا الانخداع بظواهر نفسه ، والمسألة كلها مسألة كسب يتبادل فيتعاونون على الحياة بتزكية كل منهم الآخر

وللضمير وسائل أخرى لتزكية النفس كأن يخلع صاحبه عيوب نفسه على غيره ، ويلج فى معاداته كى يبرئ نفسه فتكون لجاجته فى خلع عيوبه على غيره دليلاً على عيوبه كما تكون لجاجة الأجرب فى الحك دليلاً على موضع الجرب منه فى نظر الطبيب

وكثيراً ما يتمحل الضمير الأعذار من أجل رغبة صاحبه فى الأذى ولذته فى الاساءة إلى الناس ، وعوامل الشر فى نفس المسىء قد لا تكون فى حاجة لمسوغ يثيرها ولكنها تكون فى حاجة إلى فرصة تستخدمها حتى ولو لم يكن لها مسوغ ، فان مسوغ الاساءة فى كثير من الأحايين فى نفس المسىء لا فى عمل من أسى إليه لأن كثيراً من النفوس بها شهوة إلى الأذى إذا أرضتها أحست راحة وسعادة فى إرضائها ، غير أن بعض شهوات الأذى لا يرضيها إلا ما أرضى نفوس قدماء الرومان عند رؤية الوحوش تفتك بالأجسام ، وبعض شهوات الأذى تكتفى بالغيبة والنميمة والكذب ، وعواقب هذه قد لا تقل عن عواقب تلك جرماً وجناية وإن كان صاحبها لا ينعت بالمجرم الجانى وإن كان ضميرها أهنأ الضمائر بالاً وأروحها خاطراً

والضمير كثيراً ما يكون فى الحياة كالسفينة الصغيرة فى البحر المحيط الذى هاجته الأعاصير فقد لا تغرق السفينة كما لا يغرق الضمير ولكنها تضطر أن تسير فى مهب الأعصار كما يسير الضمير فى مهب أعاصير الميول النفسية وما تقتضيه من كذب ونفاق

والكسب والجاه والصداقة والغرور هى العقاقير التى تخدر الضمائر بها ، وهى البلسم الذى تداوى به آثار وخزاتها ، وهى المادة اللزجة التى تطلى بها الضمائر كى يصطاد بها أصحابها طيور السعادة واللذات والمكاسب كما تطلى الغصون بتلك المادة اللزجة التى تلتصق بها العصافير على غصون الأشجار ثم يأتى الصائد فيجمعها أو هى المادة اللزجة الأخرى التى يطرد بها الذباب اللاذع المسمى بخواطر التأنيب والوخزات

ومن أجل ذلك كثيراً ما ترى ضمير المرء عوناً للجانى الذى يرجى نفعه أو جاهه أو وده أو يرجى منه ارضاء غرور صاحب الضمير المناصر له . والناس فى سرائرهم يعرفون أن ضمائرهم ليست دائماً مصباح الهداية الذى يدعونه ، والانسان يتجنب فحص نفسه والبحث عنها ، وإذا كلف أو دفع إلى ذلك حاول التخلص من فحص نفسه فيقلب فحصها إلى حديث فيحدث نفسه أو تحدثه ويمنيها أو تمنيه ، ثم يعود فيقول إنه فحص نفسه وهو قلما يفعل ذلك إلا إذا دهمته مصيبة تجعله يشك فى نفسه فيفحصها فاذا لم تدهمه مصيبة تجنب فحص نفسه إلا إذا كان مريضاً بداء الخوض فى النفس وفحصها وقد يكون مرضاً إذا استفحل وعم وتطلب منه كل وقته ، ولكن مرض البحث فى النفس هذا مرض نادر فى الناس وأكثرهم لا يبلغ به البحث فى نفسه منزلة صغيرة

أو كبيرة ولو أن هذا البحث في النفس أصبح عادة لقل شرهم من غير أن يمنعهم بحثهم من الاقدام في الحياة إلا إذا استفحل وهو قلما يستفحل فيدعوهم استفحاله إلى الشك والتردد والاحجام واتهام النفس في كل أمر

ولولا أن الناس يملون عن عيوب ضمائرهم وضمائر النـاس الشيء الكثير الذي يحاولون إخفاءه ما كثر سوء ظنهم بالنفس الانسانية ، ومن العجيب أنهم يحاولون جعل حسن الظن بالنفس الانسانية مبدأ عاماً وهم في سريرتهم يسيئون الظن بكل نفس من نفوس الناس ، وهذا الاختلاف بين المبادئ النظرية والمعتقدات العملية أمر تشوق دراسته ، والقصد من تلك المبادئ النظرية حمل الناس عليها للانتفاع بهـا لأن كل إنسان يود أن يحسن غيره به الظن وأن يسيء هو الظن بغيره ، ومن عجائب الضمائر أنها قد تغرى أصحابها بأن يعتقدوا إذا حلت بأعدائهم مصيبة أن المصيبة حلت بهم لأنهم أعداؤهم

والخبرة بالضمائر ينبغى أن تحذر المرء إذا رأى متخاصمين فلا يقول إن أحدهما فاضل ذو حق والآخر ناقص ذو باطل ، فقد يكون كل منهما على حق أو على شيء من الحق أو على باطل ، وقد يكون الأكثر حقاً هو الأكثر حظاً من الفضيلة ، أو بالعكس قد يكون الأكثر حقاً هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، وقد يكون المناصر للحق والفضيلة بشعوره وعواطفه وبيانه هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، ولـكن النفوس قلما تتقصى كل هـذه الأمور ولا أهون عنـدها من أن تحكم بغير علم وأن تورط ضمائرها فيما حكمت فيه بغير علم ، ومع هـذا التورط فان الناس قد يعرفون أن جليسهم غدار مغتاب بذيء اللسان فلا يمنعهم يقينهم وعرفانهم من مؤاخاته ، وتتغابى ضمائرهم وتتعامى عن عيوبه وعن شره وقبح نفسه مادام مرجو النفع ، فضمائرهم تتورط في الحكم بغير علم وتمتنع عن الحكم على علم

وفي الخليقة صنف آخر من الضمائر تكون أسقاماً عنـد أصحابها وتعظم عيوبهم في أعينهم ، وهذا مرض نادر مثل مرض إيغال المرء في فحص نفسه

وضمير صاحب الشعور النبيل له أن يطالب بألا يعاقب على نبل شعوره ولـكن ليس له أن يطلب جزاء أو شكوراً ، اذا كان جزاؤه في نبل شعوره واذا كانت مسرته فيه وشقاؤه في غيره

عبد الرحمن شكرى

النيـــل

أبرز « شخصية » في العالم

عن مجلة « أمال » الفرنسية

إن المشكلة الحبشيـة مهما يكن حلها هي في الحقيقة وليدة معضلة النيل وذيولها الخفية

سُئل مرَّة الكولونيل لورنس : « أية شخصيـة في العالم أكبر نفوذاً وأعظم شأناً ؟ » فأجاب هـذا الرجل الغريب الذي يعد أكبر مخاطر في عصرنا بكلمة واحدة هي : النيل

إن في جواب لورنس ما يدعو لأول وهلة إلى الاستغراب لأنه أنزل النهر منزلة العاقلين وجعل منه « شخصية » بارزة ، ولـكنه لم يخرج بتحديده وتعريفه عن اعتقاد قدماء المصريين في النيل ، فضلاً عن أن للكونيل لورنس ولكل انكليزى سبباً يحمله على مجاراة الأقدمين في اعتقادهم . وهذه الرواية التي تمثلها إيطاليا وانكلترا ويخشى أن تنتهي بمأساة عالية ، أليس بطلها هذا النيل ، بل هذه الشخصية المقدسة التي عبدها الانسان قديماً ولا يزال يعبدها إلى اليوم ؟ .

ما فتئت بريطانيا العظمى منـــذ أنشأت امبراطوريتها الاستعمارية تطمع في السيادة على البحار ، وفي التسلط على أهم المعابر البحرية حتى تم لها ذلك ؛ ففي قبضتها الآن كل المغاليق التي تؤمن مواصلاتها بتلك الامبراطورية المترامية الأطراف ، وأخصها الهند كبرى مستعمراتها وأغناها وأصعبها مراساً

أدركت انكلترا منذ حملة بونابرت على مصر أن تأمين طريق الهند يقضى ببسط نفوذها على بلاد الفراعنـة دون أن يشاركها فيه أحد . ثم جاء فتح قنال السويس باعثاً آخر على تشبثها بهذا النفوذ . ومن تدبر سياسة انكلترا في خلال قرن كامل رآها تدور كلها على محور واحد ، هو سلامة طريق الهند . فـكل شبح تتخيل فيه ما يمس هـذه السلامة عاجلاً أو آجلاً حاذرته وسعت إلى طمسه . هكذا فعلت وكذا تفعل الآن في موقفها السلبي تجاه الغزوة الايطالية

إن الانكليز الذين يقبضون في السويس وعدن على مغلاق